البعد الحضاري للفكر الديني عند مالك بن نبي و أثره في تهذيب السلوك الاجتماعي

د. ذكرى بنت الحبيب الجد

أستاذة عرضية بالمعهد العالي للعلوم الاسلامية - القيروان

جامعة الزيتونة تونس

مخبر الفكر الإسلامي وتحولاته بتونس.

مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان.

dhekranbl10@gmail.com

- **ملخـص:**

يعدّ مالك بن نبي من أبرز المفكرين والمنظرين ورواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين، وهو يمثل امتدادا للعلامة ابن خلدون، فقد وضع أسس مدرسة فكرية أصيلة، انطلاقا من أفكاره ومقولاته وسبل معالجته لمختلف القضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية.. وكانت التجربة الفكرية والمعايشة الميدانية التي واكبها مالك بن نبي بأبعادها الروحية والفكرية والاجتماعية هي المكوّن العملي لما تميّز به من أفكار وما قدمه من تصحيح للمفاهيم فيما يتعلق بالإنسان والثقافة والحضارة، انطلاقا من نظرة واقعية هادفة تروم تحقيق السمو الحضاري الذي يجدر بالأمة الإسلامية أن تكون خير ممثل له.

لقد بيّن مالك بن نبي من خلال مشروعه الفكري أن بلوغ الحضارة لن يكون إلا بإحداث التغيير في المجتمع المسلم، حتى يبلغ درجة التحضر والتطور والرقي والازدهار؛ ولتحقيق ذلك سعى إلى بناء الإنسان الواعي بما يجري حوله، الإنسان الفاعل المؤثر الذي يُسْهم في صناعة التاريخ وتغيير الواقع إلى الأفضل، إذ يرى أنه بناء مجتمع متحضر يستدعي إعداد الفرد الذي يؤمن بضرورة المشاركة في هذا البناء، ومنه إحداث التغيير الإيجابي الذي يفضي إلى ميلاد مجتمع متحضر.

ولطالما أكد مالك بن نبي على أهمية العلاقات الاجتماعية ومدى ارتباطها بالفكرة الدينية، من خلال رؤيته في تأسيس البناء الحضاري على ثلاثة عناصر ضرورية، هي (الإنسان والتراب والوقت) ويرى أنّ التوجيه الصحيح لهذه العناصر، وحُسْن استثمارها هو الكفيل بقيادة المجتمع نحو بناء الحضارة المنشودة التي تكون واقعاً فعلياً وتؤتي ثمارها في كل حين.. تلك هي المحطات التي سنقف عندها ضمن هذه الورقة البحثية التي تتناول أبعاد التنمية الاجتماعية في فكر مالك بن نبي، ونسعى من خلالها إلى تسليط الضوء على أهمية الفكرة الدينية والوعي بالزمن في البناء الحضاري عند مالك بن نبي.

مقدّمة

يعتبر مالك بن نبي[1] من بين المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بدراسة مشكلات المجتمع العربي الإسلامي، فقد حاول أولا أن يشخّص هذه المشكلات وثانيا أن يقدم حلولا لها وفق تصوّره فقد بين لنا من خلال كل آرائه التي ضمّنها مؤلفاته سواء المتقدمة منها أو المتأخرة أنّ المجتمع العربي الإسلامي المعاصر يعيش مأزقا حضاريا حقيقيا وجب عليه تجاوزه والتوجّه نحو بناء الحضارة، حيث أكّد من خلال مشروعه الفكري أنّ بلوغ الحضارة لن يكون إلا من خلال إحداث التغيير في المجتمع المسلم حتى يبلغ مرحلة التحضّر.

---

[1] هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن بني ولد في قسنطينة بالجزائر في 28 جانفي 1905 تابع دراسته بكلية الهندسة بفرنسا بعد حصوله على البكالوريا، استقر لفترة بالقاهرة ثم عاد إلى الجزائر سنة 1963 حيث عيّن مدير للتعليم العالي من أهم مؤلفاته الظاهرة القرآنية، شروط النهضة وجهة العالم الإسلامي مشكلة الثقافة وغيرها.

فابن نبي من أهم الذين تحدثوا عن ضرورة إحداث التغيير في المجتمع العربي الإسلامي برؤية إسلامية متميزة، ورغم أنه عايش الحضارة الغربية ونهل من ثقافتها، فقد عاش مثقلا بهموم مجتمعه العربي الإسلامي متمسكا برؤيته المتميزة لمشكلاته ساعيا إلى فهمها في ضوء العقيدة الإسلامية.

والهدف من هذه الدراسة هو بيان البعد الحضاري والثقافي لفكر مالك بن نبي وموقفه من كيفيّة بناء الحضارة من منظور إسلامي. ثمّ بيان أثر فكر مالك بن نبي في تهذيب سلوك الفرد وبناء المجتمع الحضاري.

I - البعد الحضاري والثقافي لفكر مالك بن نبي

إن إحداث التغيير ضروري من أجل الارتقاء بمستوى الفرد و بالتالي بمستوى المجتمع، لذلك يرى مالك بن نبي أنه لكي نبني مجتمعا متحضرا يجب علينا أن نجعل الفرد يؤمن بضرورة المشاركة في هذا البناء حيث يعمل كل فرد على تحقيق المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة، لأن التفكير في هذه المصلحة الخاصة هو ما أرهق المجتمع العربي و جعله يتخلّف كثيرا عن المجتمعات الأخرى التي صارت أكثر تحضّرا، كما يجب على المجتمع توطيد شبكة العلاقات الاجتماعية لأنه كلما قويت هذه الشبكة كلما زادت فرصة إحداث التغيير الاجتماعي و بالتالي ميلاد المجتمع المتحضر، ويرى مالك بن نبي أن دور شبكة العلاقات الاجتماعية مرتبط بالفكرة الدينية التي تؤثر إيجابيا على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد . كما أن فلسفة التغيير عند مالك بن نبي تقوم على ثلاثة عناصر ضرورية هي الإنسان والتراب والوقت، وأن التوجيه الصحيح لهذه العناصر هو الذي يقود المجتمع إلى بناء الحضارة.

ذلك أن تحقيق مصلحة المجتمع شرط أساسي لبلوغ الحضارة، وإن أهم ما يميز موقفه هذا هو ربطه بين كل المشكلات التي يعيشها المجتمع المسلم ومشكلة الحضارة، لذلك نجده قد تعمّق في دراسة العناصر الرئيسة التي تساهم في بناءها الإسلامية.

يعتبر مالك بن نبي أحد أهم رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين. وقد اعتبره الكثيرون امتداد للعلّامة ابن خلدون، وهو من أكثر المفكرين المعاصرين الذين نبّهوا الى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة. كما وقف بن نبي دائما في كتبه وأطروحاته قارئا وناقدا لإخفاقات الأمة، حيث ترك مدرسة فكرية عميقة الجذور، تخرّج منها مجموعة من المفكرين الذين حاولوا نشر فكره وآرائه واستنباط الحلول من مقولاته النظرية، التي يصف فيها أسباب تراجع المجتمعات الإسلامية وتخلّفها عن السياق الحضاري الإنساني. فقد سعى مالك بن نبي إلى بناء الفرد المسلّح بالفكر الصحيح الواعي لما يجري في المجتمع، وبالفهم الواضح لخط سير التاريخ، من أجل أن يكون على يديه تغيير الواقع المتردي. إن التجربة الفكرية والميدانية العميقة بأبعادها الروحية والفكرية والاجتماعية شكلت فكر مالك بن نبي حول مفاهيم مرتبطة بالإنسان، والثقافة،

والحضارة التي "ترتكز على إنسجام الجهود الإنسانية وتكاملها مع قوانين النهوض المادي والمعنوي وجملة الشروط الخاصة بالنمو والازدهار في شتى المجالات الفكرية والروحية والاقتصادية والمادية في الواقع المعاش.[1]

سعى مالك بن نبي إلى طرح الإسلام في كل تصوراته الفكرية كملهم لقيمنا قادر على استعادة دور الإنسان الفاعل ويرى بن نبي أن الإسلام لا يقدّم إلى العالم ككتاب، وإنما كواقع اجتماعي يساهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية. وهو الأمر الذي كان من الممكن أن يكون له أثر إيجابي كبير على مشروعه الفكري برمّته. لذلك حاول بن نبي أن يبرر ربطه بين مفهوم الحضارة والعقيدة الدينية اثناء بحثه في شروط النهضة المرتقبة للأمة الإسلامية، هذا الربط الذي دفعه إلى تحديد حدّ فاصل لبداية انحدار المسلمين لنلمس المرجعية الفكرية لمالك بن نبي وهي مرجعية إسلامية يركز فيها على إحياء الإسلام الصحيح كشرط لبناء الحضارة. حاول من خلالها التأكيد على أن الدين هو مقوّم أساسي من مقومات أي حضارة، وهو الفاعل في بنائها وتطويرها وازدهارها ولهذا نجده يربط بين تخلف المسلمين وبين فقدان العقيدة الدينية لفاعليتها في المجتمع. والنتيجة التي وصل إليها بن نبي أن الأزمة الحضارية عند المسلمين من خلال دراسة دقيقة للواقع ليست أزمة عقيدة أو فكر سياسي فحسب، وليست مشكلة أصالة مفقودة، وإنما مشكلة انتكاسة وسقوط في محطة تاريخية ويستوجب ذلك إعادة الأمر الطبيعي بالانسجام مع صفحات التاريخ المشرقة، وليس بأخذ السند والحجة من واقع الانتكاسات.

يرى بن نبي أنه حينما نتأمل القرآن الكريم يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها. فهو قانون من قوانين الله عز وجل التي فطرت عليها النفس الإنسانية. وهو فضلا عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوّن الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة هذا الأنا. ثم يرجع بن نبي إلى التاريخ فيجده يشهد أن الدين ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية، ليس هذا فحسب، بل إن الدين كان من وراء كل المنجزات البشرية، ويقدم الدين بديلا تفسيريا لقيام الحضارات ومنجزاتها عبر التاريخ. يقول بن نبي:" كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو المراحل البدائية، وجد سطوراً من الفكرة الدينية"[2]. ولقد أظهر علم الآثار دائماً - من بين الأطلال التي كشف عنها - بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أياً كانت تلك الشعائر. ولهذا يقرر أن الدين الذي هو

---

[1] بوبكر جيلالي، مالك بن بني البناء الحضاري دار المعرفة، الجزائر، د.ت، ص38

[2] مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، تقديم محمد عبد الله دراز و محمود محمد شاكر ، دار الفكر دمشق ،ط4، 2000 ، ص69 .

التعبير التاريخي والاجتماعي عن هذه التجارب المتكررة خلال القرون، يعد في منطق الطبيعة أساس جميع التغيرات الإنسانية الكبرى، ولذلك فلن نستطيع أن نتناول الواقع الإنساني من زاوية المادة فحسب. كما يرى بن نبي أن الفكرة الدينية ليست نسقاً من الأفكار الغيبية فقط، ولا يقصرها على الدين السماوي فقط، بل هي قانون يحكم فكر الإنسان، ويوجه بصره نحو أفق أوسع، ويروض الطاقة الحيوية للإنسان، ويجعلها مخصصة للحضارة، وهي في نظره كل فكرة تقدم معبوداً غيبياً ووعداً أعلى، ابتداء من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات. ولهذا فهو خصص فصولاً، في كتابه (شروط النهضة)[1] لتحليل دورتين من دورات الحضارة، هما الحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية لاستخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى مسرح التاريخ، وتحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة وهو بتحليله لهذين الدورين ينتهي إلى تأكيد أن السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة، الإنسان والتراب والوقت، ويبعثها قوة فاعلة في التاريخ هو الدين. ومعنى ذلك أن الفكرة الدينية هي التي تقف خلف النهوض الحضاري لا تقتصر على مجتمع دون آخر فسواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أو المجتمعات التي اختفت من الوجود، فإننا نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست أثرها في حقل التاريخ ناتجة عن فكرة دينية [2]. فكلتا الحضارتين تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص، وتوجهه نحو غايات سامية. بل إن بن نبي يرى أن هذا القانون الدافع للحضارة لا نجده في الحضارتين: الإسلامية والغربية فحسب، بل يتعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية، أي أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني. ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر بن نبي إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شريعة ومنهاجاً. ومن هنا فالحضارة تبدأ عندما يمتد نظر الإنسان على أفق أعلى من يومه ومن حقبته التي يعيشها، ومن هنا ينبغي علينا أن نتبع تأثير الدين من خلال تركيبه بين العبقرية الإنسانية والشروط الأولية للحضارة، أي تتبع ذلك الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث الحركة والنشاط. و هكذا يرى بن نبي أن الدين في ضوء القرآن الكريم له غايتان ، فإن قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ(59) ﴾[3] ،يبين أن الدين غايته أن يربط الأرض بالسماء، وهو حين ينشئ الشبكة الروحية التي تربط الفرد والمجتمع بالله، فإنه في الوقت نفسه يبني شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدي نشاطه المشترك، وهو بذلك يربط أهداف السماء

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين و عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986 .

[3] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3 ،1986،ص52

[3] الذاريات 56-58.

بضرورات الأرض. فهذا القانون الذي بينته الآيات المحكمات، لم يرد أن يفصل الناس عن الأرض، ولكن أراد أن يفتح لهم طريقاً أعظم خيراً ليضطلعوا بعملهم الأرضي. ينظر بن نبي إلى الدين باعتبار أن له وظيفة الربط بالله عن طريق هذا الوضع الإلهي، كما أن له أن يفتح آفاقاً أوسع للإنسان حينما يربطه بأبعاد السماء، ويرفع بصره إلى ما بعد حياته الأرضية. فهناك غايتان للدين: ربط الصلة بالله، وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تدخل بالمجتمع دائرة الحضارة. وباعتبار أن بن نبي يبحث عن القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، وينظر في شروط البناء الحضاري، فإنه يركز على الوظيفة الاجتماعية للدين، معتمداً في ذلك على الاعتبارات النفسية الاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية، فهو يختبر هذه الوظيفة من ناحيتين: من ناحية تسجيل الفكرة الدينية في النفوس، ومن ناحية تسجيل الفكرة الدينية في التاريخ، وهو ما بينّه في كتابه "شروط النهضة".

إن بن نبي يستعمل مفهوم الدين باعتباره تلك السنة التي فطر الله عليها الإنسان، وأن الدين وحده هو المركب الحقيقي للقيم الحضارية، وهو يعطي شرارة الانطلاق لتدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز. بدليل أن القرآن الكريم يعرض الدين ليس على أنه تشريع فقط، بل على أنه سنّة موضوعية من سنن الوجود. وقانون داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته. بل هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا يمكن تبديلها. فالدين ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن إعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها. فهو لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الانسان إنسانا. تتجسد العلاقة الروحية بين الله تعالى والإنسان في صورة علاقة إجتماعية وكذلك من خلال توفير القانون الأخلاقي الذي يمنح قيمة لما يقوم به الإنسان وما يحياه، لهذا فإن للدين دوراً حضارياً فعالاً.

إن الفكرة الدينية عند مالك بن نبي لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمها الغيبية[1]؛ تعني الحضارة عند مالك بن نبي، توفر مجموعة من الشروط المادية والمعنوية، ويُعد الدين منشأ كل حضارة.

يعد الإنسان في فكر مالك بن نبي محور عملية التغيير وهو الفاعل فيه، ومنطلق التغيير هي النفس باعتبار الآية الكريمة: ﴿إن الله لا يُغيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾[2] وهو شرط ضروري من شروط الارتقاء في سلم الحضارة.

---

[1] عبد الله بن محمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للإنتاج و النشر، بيروت، ط1، 2012 ،ص250

[2] الرعد 11 .

1- مفهوم المجتمع وإمكانية التغيير

لقد أدرك مالك بن نبي أننا شعوب انفعالية يوجّهنا الحماس ولا نتعقل الأمور، وأن مشكلتنا الحقيقية ليست في فهم ديننا وانما في فهم أنفسنا، وهذا ما يدعو إليه الدين في حد ذاته، يقول مالك بن نبي: "فحين أقول: مشكلة مجتمع لا مشكلة دين، لا أريد أن أنزع المسلم من دينه و عقيدته بل حرصي عليه أن يبقى على دينه كحرصه وأشد، ولكن ما أريد هنا: أن أفرق بين السّنن التي تجعل الانسان عاجزا، والسنن التي تجعل الانسان مجتهدا عاملا"[1]. إن تعلق المسلمين بالأوهام وعدم فهمهم لسنن التغيير خصوصا تغيير ما بالأنفس هومن أكبر معوقات إمكانية التغيير، لذلك يرى مالك بن نبي أن التغيير الحقيقي هو الذي ينبع من النفوس، منطلقا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2] التغيير الحقيقي مرتبط بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية والتربوية وغيرها، وهي الجوانب التي ينبغي على المجتمع إذا أراد أن يحسّن أوضاعه أن يهتم بها.

إن أهم ما فهمه مالك بن نبي من الآية السابقة هو أنها تتحدث عن تغييرين هما" تغيير الله لما بالقوم" و " تغيير القوم لما بأنفسهم".

إلا أنه يرى أن تغيير القوم هو شرط تحقيق التغيير الإلهي، فالتغيير الذي قد يحدثه الله في القوم مرتبط بالنّعم بصفة عامة كالصحة وسلامة الأعضاء والغنى وغيرها، أما التغيير الذي يقوم به القوم فيرتبط بما في الأنفس، وأن مصير المجتمع يتحدّد بمقدار تحقيقه لهذا التغيير واستعداده له، لذلك نجد أن الكثير من الآيات القرءانية هي دعوة للعودة إلى النفس وإصلاحها وذلك لأن النفس:" في حاجة إلى هدم ثم بناء في آن واحد، كما لابد من إعادة الصفاء والوضوح للنفس"[3]. وهذا ما يثبت لنا أن التغيير النفسي يكون أولا ثم يأتي التغيير الاجتماعي، مع العلم أن الله منح الإنسان إمكانية أن يغير ما بنفسه وإذا اعتقدنا غير ذلك فإننا سنقع في الفشل والكسل. إن أغلب علماء الاجتماع حسب مالك بن نبي يخطئون عندما يطلقون صفة مجتمع على مجموعة من الأفراد، وهو أيضا الخطأ الذي يقع فيه الانثروبولوجيين أيضا عندما يصفون الشعوب البدائية بالمجتمعات، انطلاقا من المعيار الكمي أو ما يصفه مالك بن نبي بمصطلح "التكديس".

يقدم لنا مالك بن نبي مفهوما جديدا للمجتمع يسميه "المفهوم الوظيفي" القائم على علاقة تبادلية تكاملية بين المجتمع وأفراده، فالأفراد يعملون للمصلحة العامة لهذا المجتمع والمجتمع يوفر لهم كل الظروف

---

[1] جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي: ط8، 1989، ص33.

[2] الرعد، 11.

[3] جودت سعيد، حتى يغيّرو ما بأنفسهم، المصدر السابق، ص 54.

والصلاحيات التي تساعدهم على أداء مهامهم ووظائفهم[1]. يؤكد مالك بن نبي على أهمية الجانب الكيفي المتمثل في ضرورة التفكير و العمل المشترك بين كافة الأفراد في ما يخدم المجتمع ككل ، أي التحوّل من الفردية إلى المجموع أو من الأنانية إلى الغيرية ، وهذا ما يحقق مصلحة المجتمع والفرد على حد السواء ومنه قول مالك بن نبي :" إن ارتباط الفرد بالمجتمع هو الذي يحقق السعادة"[2]. لأنه إذا عمل كل فرد من أفراد المجتمع عن قناعة على تحقيق مصلحة مجتمعه وجعل المصلحة العامة أسبق من مصلحته الخاصة فإن ذلك سيعود بالفائدة على الفرد في حد ذاته ، وذلك لأن المجتمع هو من سيقدم له المقابل : "فالإنسان الذي يكون مجتمعه مجتمع حضارة لا يكون معرّضا للحرمان من الضمانات الاجتماعية . فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل، فكأنني أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة أحقق جميع شروط الحياة."[3] وهذا ما يجعل من مهمة التغيير ليست فقط مهمة استعجالية، وإنما في الوقت ذاته تعتبر مهمة صعبة تقتضي وجود أطراف قادرة على تحملها وأدائها على أحسن وجه.

يقول مالك بن نبي:" فأهم شيء يحث عليه القرآن ومن أجله أنزل الكتاب وأرسل الرسل هو تغيير المجتمعات، فلهذا كان الإلحاح في القرءان لينظر الناس إلى سنن الذين خلو من قبل "[4]. إن المحدودية في النظر تجعل الإنسان لا يرى أسلوبا آخر للحياة غير الأسلوب الذي يعيش عليه، وبالتالي فلن يدرك أبدا أهمية وضرورة التغيير لكي ينتقل إلى نمط أفضل من الحياة. يكمن الإسهام الحقيقي لمالك بن نبي في تأكيده على أن الفرد الذي يسهم في بناء الحضارة ليس هو الفرد الذي ينظر إليه على أنه مجرد عضو في المجتمع والذي ينحصر مفهومه في صفاته الفطرية ، وإنما هو "الشخص" الذي تكون لديه نزعة اجتماعية و رغبة في تكوين علاقات إيجابية مع كل أفراد مجتمعه سعيا منه على مشاركتهم المصلحة العامة ، وعليه يعطي مالك بن نبي أهمية كبيرة لما أسماه بـ"عالم الأشخاص" إلى درجة أنه يربط التغيير الحقيقي في المجتمع بهذا العالم ، و منه تأكيده على أن :" العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي ، هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعة اجتماعية تربطه بالمجتمع"[5]. فكلما قويت العلاقات بين الأشخاص قويت العلاقات بين الأفكار والأشياء، لأنه ليس هناك خطر على تطور المجتمع مثل الخطر الذي تشكّله النزعة الفردانية الموجودة فيه.

---

[1] مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة، دار النايا، ط1، سوريا، 2012، ص119.

[2] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط2، 2002، ص161.

[3] المصدر نفسه، ص163.

[4] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط2، 2002، ص129.

[5] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط2، 2002، ص129.

إن تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية من أخطر مظاهر تخلف المجتمعات، وبالتالي هذا ما يتسبب في ابتعادها عن ركب الحضارة.

2- فلسفة التغيير عند مالك بن نبي

إن بلوغ الحضارة لا يكون إلا بإحداث التغيير الذي يجب أن يمس كل فرد من أفراد المجتمع، حيث يجب على المجتمع أن يغير من طريقة تفكير أفراده وسلوكياتهم من الجانب البدائي إلى الجانب الاجتماعي، أي من التفكير في المصلحة الخاصة إلى التفكير في المصلحة العامة، لأن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العامل الأساس المتحكم في عملية التغير والذي يضمن تحقيق هذه العملية وبالتالي يمكن للمجتمع أن يصبح مجتمعا متحضرا، وتأكيدا منه على أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية يقول مالك بن نبي: " وهكذا، يمكن أن نتعلم في هذه الظروف المعنى الأولى للحضارة، وأن معنى التحضر: أن يتعلم (الإنسان) كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية".

تعمل فلسفة التغيير عند مالك بن نبي على إعطاء معاني جديدة لمصطلحات قديمة، إذ لم يعد الفرد مجرد عضو في مجتمع وإنما أصبح ينظر إليه على أنه شخص يعيش مع أشخاص آخرين داخل المجتمع ، كما أن مفهوم المجتمع لم يعد ينحصر في كونه مجموعة من الأفراد ، وإنما أصبح مجموعة من الأشخاص الذين يسعون جميعا ودون استثناء إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع إذا أرادوا الارتقاء بمجتمعاتهم ليصبح مجتمعا متحضرا ، وهذا دون أن يكون هناك تعارض أو تناقض بين مصلحة الفرد ومصلحة مجتمعه ، من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي ربط بين الأنصار و المهاجرين ، و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي ، و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي ، أي مع تمكين شبكة العلاقات الاجتماعية[1] . بالتالي لا يمكن تصور تغيير اجتماعي دون وجود شبكة علاقات الاجتماعية، لأنها هي التي تجسد العمل الاجتماعي المشترك وهي التي تنقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة، وإن كان للدين دور كبير في هذا التحول أو التغيير.

تبين لنا فلسفة التغيير عند مالك بن نبي أنه إذا أراد المجتمع أن يبني حضارة لابد عليه أن يبني أشخاصا لا أن يكدّس أفرادا حيث نذكر:" الحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار، ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد

[1] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور، دار الفكر الجزائر، دمشق، ط3 ،1986، ص28.

وشخصيته"[1] . لذلك نجد ان مالك بن نبي لا يتوقف عند حدود سرد المعطيات التاريخية في ظهور الحضارات كما نجد عند اغلب المؤرخين وعلماء الاجتماع، وإنما يلجأ إلى التحليل النفسي لفهم الجوانب الروحية والنفسية التي تساهم حسب رأيه بشكل فعال في بناء الحضارة، إذ نجده يؤكد في إحدى أقواله على أن الحضارة يجب:" أن تحدد من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يُقدِّم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر واحترام شخصية الفرد، تُمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يُريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه".[2] وإن كان ابن خلدون قد أسهم إسهاما كبيرا في هذا المجال إلا أن ما يعيبه عليه مالك بن نبي هو أنه توقف عند إحدى منتجات الحضارة وهي الدولة، لكنه لم يسهم كثيرا في دراسة الحضارة ذاتها، وحتى ولو أن ماركس اهتم بدراسة عوامل قيام الحضارة، إلا أن مالك بن نبي يرى أنه اهتم فقط بالجوانب المادية وأهمل الجانب الروحي كعامل مؤثر في بناء الحضارة، لذلك نجد مالك بن نبي قد تعمق في مفهوم الحضارة ومراحلها التي يقول عنها:" نحن نعلم مسبقا أن حضارة معينة تقع بين حدين اثنين : الميلاد والأفول، وإذن فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين في دورتها باعتبارهما ليسا محل نزاع، فما الذي يمكننا أن نضع من طور انتقالي يتوسط هذين الخطين، إنه الأوج"[3]. هكذا، فان الحضارة كما يبين لنا مالك بن نبي تمر بهذه المراحل الثلاث ألا وهي الظهور والتطور ثم الانحطاط، وعلى الرغم من أن ما يحسب لمالك بن نبي إسهامه الكبير في ضبط مفهوم الحضارة وكذا توضيح أهم المراحل التي تمر بها، إلا أنه إستفاد في ذلك كثيرا من ابن خلدون وكتابه " المقدمة " لأنه كان قد أشار إلى علاقة التشابه بين المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته ومراحل تطور الحضارة وذلك عندما قال : " الحضارة غاية للبداوة ، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في العقول والنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواها ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة على أثر النمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط ، فلتعلم أن الحضارة في العمران كذلك لأنها غاية لا مزيد وراءها[4]" .

---

[1] مالك بن نبي، من أجل التغيير، المصدر السابق، ص58.

[2] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص43.

[3] مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص66.

[4] عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ج1، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، ط 7، مصر،2014، ص 817.

3- دور الفكرة الدينية في إحداث التغيير الاجتماعي

يرى مالك بن نبي أن للفكرة الدينية تأثيرا كبيرا على النهوض الحقيقي بالمجتمع ، فحتى ولو كانت شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد هي التي تجسّد التغيير الحقيقي و بالتالي ميلاد المجتمع ، إلا أن الفكرة الدينية هي العامل الأول والرئيس الذي ينتج عنه هذا الميلاد، لذلك نجد أن مالك بن نبي يتحدث في كل مؤلفاته عن دور الدين أو ما أسماه ب"الفكرة الدينية" في إحداث التغيير الاجتماعي حيث يقول: "نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية ، و معنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود"[1] . كما أن العلاقات الاجتماعية التي تعبر عن خصوصية مجتمع معين ترجع في الأصل إلى الدين الذي يدينه ذلك المجتمع، أي إلى العلاقة التي تربط الإنسان بربه والتي تحدد كذلك طبيعة المعاملات خصوصا الأخلاقية بين الأفراد داخل المجتمع، لكن الفكرة الدينية تأثر إيجابيا على العلاقات الاجتماعية إذا كانت قوية أما إذا ضعفت فان تأثيرها سيكون سلبيا[2]. إن العلاقة الروحية بين الإنسان وخالقه هي التي توجه العلاقة الاجتماعية بين الفرد وغيره من الأفراد الآخرين في المجتمع، ومنه فإن الفكرة الدينية هي التي تجعل الأفراد يفكرون ويعملون على المساهمة في بناء الحضارة:"

فالعلاقة بين الله والإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان (...) فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهم حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد"[3]. وهذا ما حدث عندما ظهرت الدعوة المحمدية إلى الدين الإسلامي. حيث كان المجتمع العربي آنذاك يعيش في تخلّف وجاهلية كما كانت تطغى عليه النزعة الفردانية والسعي إلى التعّدي على الآخرين، لكن لمّا جاء الدين الإسلامي الذي دعا إلى عبادة الله وإلى ترك الأنانية والعمل على المشاركة مع الآخرين في كل ما يخدم المصلحة المشتركة بين الناس، ترتّب عن ذلك اتحاد المسلمين نتيجة التفاف المسلمين حول هذا الدين الذي وحّدهم، وبالتالي هذا ما أدّى إلى ميلاد الحضارة العربية الإسلامية.

---

[1] مالك بن بني بين الرشاد والتيه، دار الفكر المعاصر، ببيروت، سوريا ،1989 ص 56.

[2] محمد بن سباع، الفكر العربي المعاصر من منطلق الاستحالة إلى أفق الإمكان، دار الأيام، ط 1، الأردن ،2016، ص 62.

[3] مالك بن بني، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، المصدر السابق، ص 56.

يعطي مالك بن نبي الفكرة الدينية أهمية كبيرة في بناء الحضارة[1] حيث يقول:" إن الفرد ليس أساسه إلا "الإنسان الطبيعي" أو الفطري غير أن الفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه إلى "عملية شرطية" تمثل ما يصطلح عليه في علم النفس الفرويدي بـ«الكبت»، وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين"[2]. وهنا تساهم الفكرة الدينية في إحداث التغيير من الإنسان الطبيعي إلى الإنسان المتحضر، أو من المجتمع المتخلف إلى المجتمع المتحضر.

يرى مالك بن نبي أن الحضارة تبدأ ببزوغ فكرة دينية تقوم بتركيب عناصر الحضارة وتنظم الطاقة الحيوية للأفراد، حيث يتحرر الفرد من هيمنة الغريزة ويخضع للروح وفي هذه المرحلة تصل شبكة العلاقات الإجتماعية إلى قمة كثافتها، حيث يرى أن هذه المرحلة تعبر عنها الدعوة المحمدية ومرحلة الخلافة الراشدة وتنتهي هذه المرحلة بمعركة صفين.
أما المرحلة الثانية فتنعطف فيها الحضارة بسبب المشكلات المادية الناتجة عن توسع المجتمع، فتكفّ الروح عن السيطرة على الغرائز ويبدأ عهد العقل ويعادل هذا المنعطف في الحضارة الإسلامية المرحلة الأموية والعباسية، وهنا عندما لا يقدر العقل على كبح الغرائز تدخل الحضارة مرحلة الانحطاط وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية وتنتهي بها دورة الحضارة. [3]

II- أثر فكر مالك بن نبي في تهذيب سلوك الفرد وبناء المجتمع المتحضّر

يرى بن نبي أن العناصر التي لا غنى عنها لكل حضارة هي: **الإنسان والتراب والوقت**.

يتحدث مالك بن نبي عن أهمية "التوجيه" في إعداد التغيير، أي توجيه عناصر التغيير الاجتماعي الثلاث. فمفهوم التوجيه عند مالك بن نبي الذي يقول عنه: التوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية وبلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) ومعنى (الكفاح)[4].

إن ما أنتجه المجتمع الإسلامي من نشاط فكري كان نابعا من محتوى التغيير الأساسي في النفسية العربية حين نزول الوحي و مخاطبة الرسالة النبوية روح المؤمنين وكانت الشعوب التي بعدهم تحمل بذور التغيير كما في لحظة الرسالة نفسها ، أي حتى تلك اللحظة المشحونة و القوية، إذ من طاقة تلك اللحظة فاضت

---

[1] محمد البصيري العكرمي، المغرب العربي من عبد الرحمان بن خلدون إلى مالك بن بني.
[2] مالك بن بني، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 1986، ص 67.
[3] محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، المصدر السابق، ص 25-26.
[4] محمد البصيري العكرمي، المغرب العربي من عبد الرحمان بن خلدون إلى مالك بن نبي 118.

الإمكانيات المتدفقة في مجرى الزمن وانطلقت نواة ذلك التركيب الهائل للعناصر التي لا غنى عنها في كل حضارة :الإنسان و التراب و الوقت.[1] إن الإنسان هو صاحب الفكرة و مبدعها ، أما التراب فهو الشيء الذي يمتلكه الإنسان ، في حين أن الوقت هو المدة التي يحتاجها الإنسان لتحويل فكرته إلى شيء : "فأنا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس عليّ أن أفكر في منتجاتها، و إنما في ثلاثة أشياء :في الإنسان و التراب

والوقت، فحينما أحلّ هذه المشاكل الثلاث حلا علميا بأن أبني الإنسان بناء مكتملا وأعتني بالتراب والزمن، فإنني حينئذ قد كوّنت المجتمع الأفضل، كوّنت الحضارة التي هي الإطار الذي فيه تتم للفرد سعادته لأنه يقدم له الضمانات الاجتماعية الكافية. "[2] هكذا، يحصر مالك بن نبي عناصر التغيير الاجتماعي في ثلاثة عناصر محدّدة هي الإنسان والتراب والوقت، هي العناصر الأساسية التي أكد عليها في كل مؤلفاته والتي لا يمكن بناء الحضارة دون توفرها معا، لذلك نجده يؤكد مرة أخرى على أنه: «يجب أولا أن نضع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[3]. ولكي ندرك قيمة كل عنصر من هذه العناصر الثلاث ونفهم طبيعة الدور الذي تؤديه في بناء الحضارة كما تصوره مالك بن نبي، نعرض هذه العناصر على التوالي حسب الضرورة والأهمية التي حددها لها مالك بن نبي.

يعتبر مالك بن نبي من أهم المفكرين الذين اهتموا بدراسة الحضارة ومشكلاتها ، فكان أن قدّم تصورات جديدة حول مفهومها وحول كل المفاهيم القريبة منها ، فتبيّن لنا أنه لا يمكن بناء الحضارة إلا إذا كان المجتمع قادرا على أداء مهمة البناء الحضاري ، كما تعمق في توضيح طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بين الفرد ومجتمعه وما يجب أن يقدمه هذا الفرد للمجتمع حتى يساهم في البناء الحضاري لمجتمعه، بالإضافة إلى تأكيده على أهمية البعد الديني ودوره في توطيد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وبالتالي مدى مساهمة الدين في بناء الحضارة.

- يكمن الإسهام الحقيقي لمالك بن نبي في الدراسات الاجتماعية والإنسانية وكذا الفلسفية ، أنه قدم مفهوما جديدا للمجتمع لا يعرّف المجتمع على أساس جانبه الكمي وإنما الكيفي ، ذلك أن المجتمع ليس مجموعة من الأفراد وإنما هو مجموعة الأشخاص الذين يعملون على تحقيق المصلحة العامة ،وربط مالك بن نبي هذا المفهوم بكيفية إحداث التغيير في المجتمع الذي يكون هدفه بناء الحضارة ، ولا ينكر مالك بن نبي أهمية المصلحة الفردية أو أحقية الفرد في التفكير في مصلحته، ولكنه رأى أن تحقق المصلحة العامة هو بالضرورة تحقق لمصلحة الفرد ، لذلك فإنه من أهم مرتكزات فلسفة التغيير عند مالك بن نبي هو أن التغيير الحقيقي يرتبط بالمجتمع و ليس بفرد بعينه. فعندما يحدث التغيير في المجتمع فإن كل فرد فيه

---

[1] مالك بن بني، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 78.

[2] م.ن، ص33.

[3] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، المصدر السابق، ص172.

سينال نصيبه من التغيير، لأن الحضارة كما بين لنا مالك بن نبي تقوم على قوة شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

- أعطى مالك بن نبي للفكرة الدينية أهمية كبيرة في إحداث التغيير الاجتماعي من ناحية أنها تعمل على توحيد شبكة العلاقات الاجتماعية بين كافة أفراد المجتمع وتهيؤهم بالتالي للمساهمة في بناء حضارة المجتمع.
- تبين لنا فلسفة التغيير عند مالك بن نبي أن التغيير أصبح ضرورة وحتمية، وأنا الهدف من ورائه هو جعل المجتمع مجتمعا متحضرا، حيث حصر مالك بن نبي عناصر هذا التغيير في ثلاث هي الانسان والتراب والوقت، وهي العناصر التي يجب على المجتمع أن يوليها أهمية كبيرة إذا أراد أن يكون مجتمعا متحضرا بأن يوجهها توجيها سليما مركزا على مجالات ثلاث هي الثقافة والعمل ورأس المال، كما أن التغيير لا يمكن أن يحدث إلا بمراعاة عناصره الثلاث مجتمعة والنظر إليها في تكاملها مع بعضها البعض دون الاهتمام؟ بعنصر على حساب غيره، حتى يتحقق هدف التغيير والذي هو ببلوغ الحضارة.

1- الإنسان:

هو العنصر الأول من عناصر الحضارة يؤثر في المجتمع بمؤثرات ثلاث أولا بفكره أو ثقافته ، وثانيا بعمله أو بالجهد الذي يقوم به خدمة للمجتمع وثالثا بماله ، و هذا دليل على الصلة الوثيقة بين الإنسان والحضارة وذلك :" لأن الإنسان هو الشرط الأساس لكل حضارة ، و أن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني "[1] .لقد تبين لمالك بن نبي أن هذه الجوانب الثلاث أي الثقافة و العمل و المال ، لم تنل حظها من الاهتمام الكبير في المجتمع لذا وجب علينا أن نفعّل علاقة الفرد بمجتمعه بأن نوجهه في هذه المجالات الثلاث وهي توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال.

1- أ- توجيه الثقافة:

لقد تبين المالك بن نبي أن الثقافة من أكبر المشكلات الاجتماعية، فالثقافة هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم وبالجمال الروحي الذي ينمو في وجوده النفسي، وأن الفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتا ثقافيا[2].وإن مشكلة الثقافة في ارتباطها بالعالم العربي والإسلامي لها ميزة خاصة تتمثل في:" خلق واقع اجتماعي لم يوجد بعد "[3]. فإذا كانت تعريفات الثقافة في الفكر الغربي ترجعها إما إلى عالم الأفكار

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص75

[2] عبد الله بن محمد العويسي، مالك بن نبي، حياته وفكره، المصدر السابق، ص324.

[3] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ط4 ،2000، ص 37.

وإما إلى عالم الأشياء، فإننا في العالم العربي في حاجة إلى ثقافة تخلق واقع اجتماعي جديد، لذلك تتجلى علاقة الثقافة بالحضارة في كونها: "تسمح للإنسان بأن يسيطر على ذاته وأن يسيطر على الأشياء التي أبدعتها عبقريته، أي بكلمة مختصرة أن يتحضر"[1].

لقد فهم مالك بن نبي الثقافة على أنها علاقة تبادلية بين "عالم الأفكار" و "عالم الأشياء" أي بين الفرد والمجتمع، فكل من الفكرة والشيء يساهمان في ظهور الثقافة وتطورها، وهذا ما أسماه مالك بن نبي ب «العلاقة المتبادلة" بين سلوك الفرد والمجتمع، ومنه يصل مالك بن نبي إلى التأكيد على أن الثقافة هي إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي، هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعنا ميتا "[2] ، **فمشكلتنا اليوم ليست في فهم الثقافة أو الإجابة عن السؤال:** ماهي الثقافة؟ وإنما في تجسيد الثقافة على المستوى العملي والاجتماعي.

1 -ب- توجيه العمل

يكتسي هذا الجانب أهمية كبيرة عند مالك بن نبي، ذلك لأنه يرى أن العمل هو أهم شروط التغيير، إذا لا يمكننا أن نبني حضارة دون أن نعمل. إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد. حيث يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء[3]. أنه ولكي نحقق النهضة يجب أن ننقل المجتمع من حالة العطالة والعبث إلى حالة العمل الموجه، إنه سير الجهود الاجتماعية في اتجاه واحد ويرى مالك بن نبي انه يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة[4]. ويفهم العمل هنا على أنه كل نشاط أنه إيجابي موجه نحو خدمة المصلحة العامة، أي أنه عندما يساهم كل شخص داخل المجتمع بأداء دور اجابي فإنه يؤدّي إلى تقدم المجتمع.

1- ج- توجيه رأس المال:

يرى مالك أنه يجب علينا أن ننظر إلى رأس المال كآلة اجتماعية تحقق لنا التقدم المادي، حيث يقول: "إن رأس المال في جوهره هو المال المتحرك الذي يتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تحدّده حاجاته الخاصة "[5]. لذلك تتحدد قيمة وأهمية رأس المال

---

[1] مالك بن نبي، من أجل التغيير دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ص4، 2005، ص 55.

[2] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المصدر السابق، ص 50.

[3] مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص107.

[4] محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، سوريا، 2007، ص48.

[5] مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص107.

في المجتمع الإسلامي بقدر مساهمته في تطوير هذا المجتمع، ولن تتأتى هذه المساهمة إلا إذا كان هناك توجيه لرأس المال حيث لا يرتبط هذا التوجيه تحديدا بالكم وإنما بالكيف، أي بمقدار النشاط والعمل والفائدة التي يخلقها رأس المال، أي أن المساهمة الحقيقية لرأس المال في تقدم المجتمع وتحضّره لا تكون بالمقدار الكمي، وإنما بمدى مساهمته في تنشيط الفكر والحياة الاجتماعية.

2- التراب:

يعد التراب أحد أهم عناصر الحضارة ولا يتحدث مالك بن نبي عن التراب كتراب بالمعنى المادي، وإنما عن القيمة الاجتماعية للتراب، لذلك يقول:" حينما نتكلم عن التراب فنحن لا نبحث في خصائصه وطبيعته، ولكننا نتكلم عنه من ناحية قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكه"[1]. يربط مالك بن نبي هنا بين تقدم الحضارة وبين قدرتها على استغلال التراب وحسن توظيفه، لأنه لاحظ أن الحضارة العربية الإسلامية في أوج تطورها كانت تولي هذا الجانب أهمية كبيرة، عكس ما نلاحظه اليوم حيث أصبحنا نهمل قيمة التراب وتحديدا قيمته الاجتماعية والاقتصادية وهنا يقول مالك بن نبي:" فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلّفة يكون التراب على قدرتها من الانحطاط "[2]. فالتراب عند مالك بن نبي ليس مجرد فلاحة الأرض وزراعتها، بل هو مجال يساهم الإنسان من خلاله في بناء حضارته، خصوصا إذا استغل الوقت لتحيق هذا الهدف.

3- الوقت:

"لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطّم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت "[3] يرى مالك بن نبي أن مشكلتنا الحقيقية في العالم الإسلامي هي مشكلة الوقت ، لأننا لا نقدره ولا نستغله في البناء الحضاري للمجتمع ، لأن الوقت إذ لم يستغل في التحصيل و العمل لن يكون له أي قيمة ، لذا وجب علينا توجيه الوقت كأهم عناصر الحضارة، وهنا يقول عنه مالك بن نبي :"إن وقتنا الزاحف نحو التاريخ لا يجب أن يضيع هباء كما يهرب الماء من ساقية خربة ، و لا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر"[4]. فإذ أرادنا أن نوظف عامل الزمن في بناء حضارتنا. وجب علينا الاستفادة منه علميا فنربط وقتا معينا بعمل معين يكون هذا العمل في خدمة المصلحة العامة للمجتمع ، هكذا لا يمكن إحداث

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص131.

[2] المصدر نفسه، ص 139.

[3] نبيل طعمة، دعوة إلى الرشاد، من أفكار الفيلسوف مالك بن نبي ص140.

[4] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص140.

التغيير الاجتماعي إلا إذا توفرت هذه العناصر الثلاث مجتمعة : الإنسان، والتراب، والزمن، فكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة له أهميته الخاصة في بناء الحضارة، ولكن هذه الأهمية التي تميز كل عنصر لا تتأتّى إلا من خلال علاقته بالعنصرين الآخرين .يعطينا مالك بن نبي مثالا يبين لنا من خلاله الأهمية التي تكتسبها هذه العناصر مجتمعة فيقول :"إن المصباح الذي نستنير به ، و الأفكار التي وجهت أمر تجهيزه و الآدميون الذين قاموا بعملية إنجازه تمثل جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينة (...) فالتراب يمثل ضمانا في صورة مواد أولية. أما الزمن فيندمج داخل سائر الاطّراد العلمي والفني الواقع بين اكتشاف الطاهرة الكهربائية حوالي نهاية القرن الثامن عشر وبين تطبيقه في ميدان الإنارة حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ذلك إن الزمن يمثل نفس الركيزة التي يقوم عليها هذا الاطّراد. وأما الإنسان فينخرط ضمن التدخل البشري (اليدوي والذهني) في هذا الاطراد. وإذن فالمصباح باعتباره نتاجا للحضارة يمثل في الواقع إنتاجا للإنسان والتراب والزمن"[1].

[1] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص55.

خاتمة

- يصوغ مالك بن نبي مجموعة محاور للتأكيد على دور الإنسان في الزمان والمكان، تتعلق هذه المحاور بالبعد الأخلاقي والنفسي والاقتصادي والاجتماعي، يصوغها مالك بن نبي في سياقات مختلفة للحث على البناء والتعمير.
- يلح مالك بن نبي على طرح فكرة الفعالية، باعتبارها الرابط الذي يجمع بين منطق الفكرة ومنطق العمل، من أجل القضاء على السلبية ومنها تحويل مبادئ القرآن إلى سلوكيات وكأن مالك بن نبي يرفع شعار: «نريد قرآناً يمشي لا نسخاً تتكدس وخطباً تتبجح».
- يحمل مفهوم التراب عند مالك بن نبي معاني ودلالات واسعة، فهو من وجهة سياسية قانونية تلك الرقعة الجغرافية التي تحدّها الحدود، وهو من الناحية الاقتصادية المصدر الرئيسي للإنتاج الزراعي والصناعي على حد سواء، وهو من الناحية المعنوية، الانتماء والولاء للفكرة والدين.
- يأخذ الزمن عند مالك بن نبي أهمية كبيرة لأنه عامل مهم من عوامل بناء الحضارة، ويدعو مالك بن نبي ضمن أطر كبرى لاستثماره وتوظيفه في الصالح العام، بدل المصلحة الخاصة والبحث عن تحقيق الذات.
- يهدف مالك بن نبي في صياغة رؤيته إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان وتفعيله فهو الذي يعول عليه في الانتقال من أجواء التخلف والتبعية، إلى أجواء التطور والقيادة الحضارية.
- يمكن القول ":إن مالك بن نبي يسعى للعودة بالحضارة الإسلامية إلى أوج قوتها عبر إحياءها مادياً وروحياً كما يؤكد على أن الحضارة لا ترتكز على عناصر بعينها، وإنما هي كل يجب أن يشارك فيه جميع الأفراد، فهي مفهوم شمولي يجب أن يتجسد في كل جوانب الحياة الذوق، الجمال، البيئة العمران، السلوك، العلاقات الاجتماعية، وغيرها.
- إن عمق فكر مالك بن نبي يتمثل في إخراج العالم الإسلامي مما يمرّ به من تخلف وانعزال إلى ركب التقدم والرقي بمشاركة إنسانية، وبإيجاد الوسائل العملية للانفتاح الاقتصادي والحضاري. فعبقرية الأمم بحضورها الحضاري الذي يتجلى بالتخلص من كل عوائق الحوار الحضاري لكل الأطراف ثم بتسليط الضوء على آفاق الحلول الاستشرافية في فكر مالك بن نبي؛ لإيجاد بواعث النهوض الحضاري، والانفتاح على العالمية والحوار الحضاري البناء بتبني منهج ونظرية بن نبي وتفعيل تجربته وتبني رؤاه المستقبلية لمد جسور التفاهم بين الحضارات.
- يؤكد مالك بن نبي على أهمية عامل الثقافة في تفعيل الحوار الحضاري الإنساني، لهذا أولى الثقافة أهمية بالغة في المشروع الحضاري، وأن الثقافة التي ينشدها الفكر الإسلامي لابد أن تكون ثقافة إنسانية شاملة. كما يؤكد مالك بن نبي على أن عامل الدين أهم عامل لتأليف عناصر الحضارة.

- دعا مالك بن نبي إلى وجوب التغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي تماشيا من المتغيرات التي يشهدها العالم. وقد جعل مالك بن نبي من الحضارة إطارا كليا وتفسيريا لكثير من القضايا التي تبحث في القانون العام دون أن ينسى القضايا الأخرى.
- يرى بن نبي أنه لبناء لبنة في حضارة جديدة، تحييها نهضة إسلامية مرتبطة بالنسق الحضاري العالمي، لا بد من وضع خطط اقتصادية مستقبلية في توجيه ثلاثية رأس المال والوقت والجهد.

لا بدّ إذا من تبني فكر مالك بن نبي التربوي والدّيني والثقافي والحضاري لتربية إنسان ما بعد الحضارة لتكون له قابلية للتحاور والتواصل والانفتاح على الآخر وعلى القيم العالمية عموما وتبني حلولا للمشكلات الحضارية التي جاء بها مالك بن نبي في مؤلفاته.

قائمة المصادروالمراجع

1. بوبكر جيلالي، مالك بن بني البناء الحضاري دار المعرفة، الجزائر، د.ت.
2. جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي: ط8، 1989.
3. عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ج1، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، ط 7، مصر،2014.
4. عبد الله بن محمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للإنتاج والنشر، بيروت، ط1، 2012.
5. لخضر لحميدي، مشكلة التغيير عند مالك بن نبي، تحت مقدم لنيل رسالة ماجستير جامعة الجزائر 2005/2004.
6. مالك بن بني بين الرشاد والتيه، دار الفكر المعاصر، ببيروت، سوريا ،1989.
7. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمد عبد الله دراز و محمود محمد شاكر، دار الفكر دمشق، ط4، 2000.
8. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986.
9. مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط2، 2002.
10. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ط4 ،2000.
11. مالك بن نبي، من أجل التغيير دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ص4، 2005.
12. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3 ،1986.
13. محمد البصيري العكرمي، المغرب العربي من عبد الرحمان بن خلدون إلى مالك بن بني.د.ت.
14. محمد بن سباع، الفكر العربي المعاصر من منطلق الاستحالة إلى أفق الإمكان، دار الأيام، ط 1، الأردن ،2016.
15. محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، سوريا، 2007.
16. مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة، دار النايا، ط1، سوريا، 2012.
17. نبيل طعمة، دعوة إلى الرشاد، من أفكار الفيلسوف مالك بن نبي.د.ت.